شرح رياض الصالحين

٥- باب المراقبة

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٩ - ٢٢٠]، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم ﴾ [الحديد :٤] ، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران : ٦]، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٤]، وَقالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] وَالآيات في البابِ كثيرة معلومة .

تعريف المراقبة : هي دوامُ علمِك بأن الله لا يخفى عليه شيءٌ من أمرك.

قال ابن القيم : هي دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه .

قَالَ الله تَعَالَى : ﴿ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾ أي : يراك في هذه العبادة العظيمة ، التي هي الصلاة ، وقت قيامك ، وتقلبك راكعاً وساجداً ، خصها بالذكر لفضلها وشرفها ، ولأن من استحضر فيها قرب ربه ، خشع وذل ، وأكملها . (تفسير السعدي) .

- ففي الآية وجوب مراقبة الله في جميع العبادات والطاعات والأحوال .

وَقالَ تَعَالَى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم ﴾ أي : معنا بعلمه وإحاطته ، فهو معنا أينما كنا ، في بر أو بحر أو جو ، في ظاهر الأرض أو باطنها ، لا تخفي عليه سبحانه خافية من أعمالهم وأقوالهم .

- وهذه هي المعية العامة ، فالمعية تنقسم إلى قسمين :

معية عامة : وهي التي تشمل كل أحد من مؤمن وكافر ، وبر وفاجر ، ودليلها هذه الآية (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

ومعية خاصة : وهي المعية لأوليائه المخلصين المتقين التي مقتضاها النصر والتأييد والحفظ والتسديد ، كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) وقال تعالى (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) وقال تعالى لموسى وهارون (قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) .

- ففي الآية مراقبة الله ، لأن الله مطلع علينا ، لا يخفى عليه شيء من أعمالنا .

وَقالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ﴾ يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماوات والأرض، ولا يخفى عليه شيء من ذلك.

- **قال القرطبي** : هذا خبر عن علمه تعالى بالأشياء على التفصيل ؛ ومثله في القرآن كثير، فهو العالم بما كان وما يكون وما لا يكون ؛ فكيف يكون عيسى إلهاً أو ابن إله وهو تَخْفى عليه الأشياء .
- **وقال أبو حيان** : (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) شيء نكرة في سياق النفي ، فتعم ، وهي دالة على كمال العلم بالكليات والجزئيات ، وعبر عن جميع العالم بالأرض والسماء ، إذ هما أعظم ما نشاهده .
- **وقال السعدي** : وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها، جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها، ومن جملة ذلك الأجنة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا ينالها علمهم، وهو تعالى يدبرها بألطف تدبير، ويقدرها بكل تقدير .

وَقالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ قال ابن عباس : يرى ويسمع ، يعني يرصد خلقه فيما يعملون ويجازي كلاً بسعيه في الدنيا والأخرى ، وسيعرض الخلائق كلهم عليه فيحكم بعدله ويقابل كلاً بما يستحقه ، وهو المنزه عن الظلم والجور , (تفسير ابن كثير) .

وَقالَ تَعَالَى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء، جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها؛ ليحذر الناس علمه فيهم، فيستحيوا من الله حَقّ الحياء، ويَتَّقُوهُ حق تقواه، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه، فإنه تعالى يعلم العين الخائنة وإن أبدت أمانة، ويعلم ما تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر. (تفسير ابن كثير)

وَالآيات في البابِ كثيرة معلومة .

٦٠–وأما الأحاديث ، فالأول : عن عمر بن الخطاب ﷺ ، قَالَ : بَيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ ذَاتَ يَومٍ ، إذْ طَلَعَ عَلَينا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ ، شَديدُ سَوَادِ الشَّعْرِ ، لا يُرَى عَلَيهِ أثَرُ السَّفَرِ ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ ، حَتَّى جَلَسَ إلَى النَّبيّ ﷺ ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيهِ إلَى رُكْبَتَيهِ ، وَوَضعَ كَفَّيهِ عَلَى فَخِذَيهِ ، وَقالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أخْبِرني عَنِ الإسلامِ ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ : ((الإسلامُ : أنْ تَشْهدَ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله وأنَّ مُحَمَّداً رسولُ الله ، وتُقيمَ الصَّلاةَ ، وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ البَيتَ إن اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سَبيلاً)) . قَالَ: صَدَقْتَ . فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقهُ ! قَالَ: فَأَخْبِرني عَنِ الإيمَانِ . قَالَ : ((أنْ تُؤمِنَ باللهِ ، وَمَلائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ)) . قَالَ : صَدقت . قَالَ : فأَخْبِرني عَنِ الإحْسَانِ . قَالَ : ((أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ)) . قَالَ : فَأَخْبِرني عَنِ السَّاعَةِ . قَالَ : ((مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بأعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)) . قَالَ : فأخبِرني عَنْ أمَاراتِهَا . قَالَ : ((أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وأنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ في البُنْيَانِ)) . ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيّاً ، ثُمَّ قَالَ : ((يَا عُمَرُ ، أَتَدْري مَنِ السَّائِلُ ؟)) قُلْتُ : اللهُ ورسُولُهُ أعْلَمُ . قَالَ : ((فإنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يعَلِّمُكُمْ أمْرَ دِينكُمْ)) . رواه مسلم .

ومعنى ((تَلِدُ الأَمَةُ رَبَّتَهَا)) أيْ سَيِّدَتَهَا ؛ ومعناهُ : أنْ تَكْثُرَ السَّراري حَتَّى تَلِدَ الأَمَةُ السُّرِّيَّةُ بِنْتاً لِسَيِّدِهَا وبِنْتُ السَّيِّدِ في مَعنَى السَّيِّدِ وَقيلَ غَيْرُ ذلِكَ . وَ((العَالَةُ)) : الفُقَراءُ . وقولُهُ : ((مَلِيّاً)) أَيْ زَمَناً طَويلاً وَكانَ ذلِكَ ثَلاثاً .

(**إذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رجل**) هو جبريل عليه السلام .

(**لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ**) أي لا يرى عليه علامة السفر وهيئته .

١– الحديث دليل على وجوب مراقبة الله، وأن ذلك من أسباب إحسان العمل لقوله (الإحسان أن تعبد الله ....) .

فالإحسان : فهو إتقان الباطن والظاهر بعبادة الله على وجه المشاهدة أو المراقبة .

قال ابن قدامة : أراد بذلك ـ أي الإحسان ـ استحضار عظمة الله، ومراقبته في حال العبادة .

وقال ابن الأثير : أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة، وحسن الطاعة .

وقال النووي في شرحه للحديث : فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة، ومراقبة العبد ربه ـ تبارك وتعالى ـ في إتمام الخشوع والخضوع .

وقال ابن حجر: وإحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع، وفراغ البال حال التلبّس بها، ومراقبة المعبود .

قال ابن منظور : فسّر النّبيّ ﷺ الإحسان حين سأله جبريل، صلوات الله عليهما وسلامه، فقال (هو أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك) أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة وحسن الطّاعة فإنّ من راقب الله أحسن عمله .

- قال الشنقيطي : فسر النبي ﷺ الإحسان بقوله لما سأله جبريل ما الإحسان ؟ (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم .

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان ، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقيناً أن الله مطلع عليه .

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل .

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) ولم يقل أيكم أكثر عملاً .

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

- فالإحسان : أن يأتي بالعمل حسناً متقناً لا نقص فيه ولا تقصير ، وإحسان العمل لا يمكن إلا بمراقبة خالق هذا الكون .

قال ابن القيم : ولكن ركن الإحسان له مقامان : وهو (أن تعبد الله كأنك تراه) هذا هو المقام الأول، وهكذا جاء بيانه عن النبي ﷺ في حديث جبريل، (فإن لم تكن تراه) هذا هو المقام الثاني، (فإنه يراك)، وانظر كيف بدأ بأعلى ما يكون من الإحسان، وهو أن يعبد العبد ربه سبحانه وتعالى كأنه يراه، يعني: وحاله حال الذي يعبد الله وهو يشاهده وينظر إليه، وكيف تكون الحال إذا كان العبد في عباداته، وفي ذهابه وإيابه، وفي معاملاته وجميع شئونه يتصرف وهو كالناظر إلى رب السماوات والأرض فوق سماواته مستوٍ على عرشه، يراه ويراقبه ويطلع عليه ؟ تكون حاله في أعلى درجات الإيمان، وأعلى درجات الدين وهي درجة الإحسان، بل أعلى المقامين في الإحسان، وهو أن يعبد العبد ربه كأنه يراه، فهذا المقام كبير وشأنه عظيم، ويحتاج إلى استحضار تام وشهود متواصل، وأن يعلم العبد أنه لا تخفى على الله منه خافية، ويحتاج إلى زيادة العناية بمطالعة ما ذكره الله عن نفسه من الأسماء والصفات؛ فإن القلب إذا توالى عليه ما أخبر الله به عن نفسه، وما أخبر به رسوله ﷺ عن ربه قوي قلبه، وأصبح العلم كالمشاهدة، أي: يكون كالذي يشاهد ربه بعينه في تصرفه، وفي عمله، وفي قيامه وقعوده وخروجه، وفي عبادته، وهذا المعنى أكثر الناس يغفلون عنه.

المقام الثاني : هو منزلة دون المنزلة الأولى- (فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، وهو استحضار مراقبة الله عز وجل واطلاعه سبحانه وتعالى عليك .

- قال ابن القيّم: وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياء، والسكينة، والمحبة، والخضوع، والخشوع، والخوف، والرجاء، ما لا يحصل بدونها، فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلها، وعمودها الذي قيامُها به، ولقد جمعَ النبي أصولَ أعمال القلب وفروعَها كلها في كلمة واحدة، وهي قوله في الإحسان: (أن تَعْبُدَ الله كأنك تراه) فتأمل كلَّ مقام من مقامات الدين، وكل عمل من أعمال القلوب، كيف تجد هذا أصله ومنبعه .

- قال ابن القيم : وَلا رَيبَ أَنَّ مُجَرَّدَ القِيَامِ بِأَعْمَالِ الجَوَارِحِ، مِنْ غَيرِ حُضُورٍ وَلا مُرَاقَبَةٍ، وَلا إِقْبَالٍ عَلَى الله قَلِيلُ المَنْفَعَةِ، دُنْيًا وَأُخْرَى، كَثِيرُ المؤنَةِ. فَإِنَّهُ – وَإِنْ كَثُرَ – مُتْعِبٌ غَيرُ مُفِيد .

وَلِهَذَا قَالَ الله تعالى (الَّذِي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) .

وَقَالَ (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وَقَالَ تَعَالَى (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

فَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَالمَوْتَ وَالحَيَاةَ، وَزَيَّنَ الأَرْضَ بِمَا عَلَيْهَا لِيَبْلُوَ عِبَادَهُ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلًا، لَا أَكْثَرُ عَمَلًا.

وَلِهَذِهِ المعَانِي الجَلِيلَةِ، لَمْ تُغْنِ الصَّالِحِينَ كَثْرَةُ الأَعْمَالِ بِالظَّاهِرِ، وَقَالُوا: الشَّأْنُ فِي الصَّفْوَةِ لَا فِي الكَثْرَةِ.

وَأَمَّا الَّذِينَ أَغْفَلُوا مَا فِي القُلُوبِ، فَغَرَّهُمُ العَدَدُ وَالكَثْرَةُ، وَمَا يَنْفَعُ رَفْعُ السُّقُوفِ وَلَمْ تُحْكَمْ مَبَانِيهَا؟!

وقال رحمه الله: المرَاقَبَةُ الَّتِي هِيَ مِنْ أَعلَى أَعْمَالِ القُلُوبِ هِيَ التَّعَبُّدُ لِلّاهِ بِاسْمِهِ الرَّقِيبِ الشَّهِيدِ، فَمَتَى عَلِمَ العَبدُ أَنَّ حَرَكَاتِهِ الظَّاهِرَةَ وَالبَاطِنَةَ قَد أَحَاطَ اللّاهُ بِعِلمِهَا، وَاسْتَحْضَرَ هَذَا العِلْمَ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، أَوجَبَ لَهُ ذَلِكَ حِرَاسَةَ بَاطِنِهِ عَنْ كُلِّ فِكْرٍ وَهَاجِسٍ يُبْغِضُهُ اللهَ، وَحَفِظَ ظَاهِرَهُ عَنْ كُلِّ قَولٍ أَو فِعْلٍ يُسْخِطُ اللهَ، وَتَعَبَّدَ بِمَقَامِ الإِحْسَانِ فَعَبَدَ اللهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاه.

فائدة : الإحسان في الشرع له معنيان على حسب تصريفه اللغوي :

احدهما : إيصال النفع ، ومحله المخلوق لا الخالق . ويشمل جميع أنواع البر والعطف .

والثاني : إتقان العمل وإيجادة الشيء ، ومحله الخالق والمخلوق معنى ، فهو نوعان :

أحدهما : الإحسان مع الخالق : وحده ما ذكره النبيﷺ في هذا الحديث ، وحقيقته كما سبق : إتقان الظاهر والباطن على المشاهدة والمراقبة .

والآخر : الإحسان إلى المخلوق بأداء حقوقه إليه .

٢-فضائل مراقبة الله :

أولاً : فضل مراقبة الله في السر توجب للعبد الإخلاص والخلاص من الكبائر .

كما ورد في الحديث (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله) متفق عليه.

ثانياً : النصح في العبادة

كما قال رسول الله ﷺ (إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قِبَل وجهه فإن الله قِبَل وجهه إذا صلى). متفق عليه

ثالثاً : تورث القلب خشية وخشوعاً وبكاء .

كما في الحديث (ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) .

رابعاً : ومن قدر على معصية الله في سره ثم راقب الله فتركها خوفاً من الله له ثواب عظيم وينفرج همه وينفس كربه .

كما في قصة صاحب الغار الذي خلا بابنة عمه وتمكن منها ثم قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقام وتركها وترك المال الذي أرادته خوفاً من الله تعالى فانفرج الغار لعمله.

خامساً : ومن راقب الله في السر حسن عمله وعظم يقينه ووجد حلاوة الإيمان واطمأن قلبه وقذف الله نوراً في قلبه وضياء في وجهه ووجد سعة في رزقه وبركة في أهله وألفة ومحبة فيما بينه وبين الخلق وانعكس ذلك على حياته بالتوفيق والرضا والسعادة.

سادساً : وعبادة السر من أجل الطاعات لأنها مبنية على حسن المراقبة لله والإخلاص المحض واليقين التام وعدم التفات القلب للمخلوقين وثوابهم .

ولذلك أثنى الله عز وجل على صدقة السر فقال: (إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير) .

وجاء في السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلّه: (رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

سابعاً : وكان من دعاء النبي ﷺ (أسألك خشيتك في الغيب والشهادة) .

أن العبد يخشى الله سراً وعلانية، ظاهراً وباطناً، فإن أكثر الناس قد يخشى الله في العلانية وفي الشهادة، ولكن الشأن خشية الله في الغيب إذا غاب عن أعين الناس فقد مدح الله من خافه بالغيب .

ثامناً : أنها من أفضل الطاعات وأعلاها .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى (وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين) ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات، ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء... في عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة .

ثامناً : أن بها يكسب العبد رضا الله سبحانه وتعالى عنه.

تاسعاً : أنها من أعظم البواعث على المسارعة إلى الطاعات.

عاشراً : أن بها يحصل العبد على معيّة الله وتأييده.

الحادي عشر : أنها تعينه على ترك المعاصي والمنكرات.

قال ابن الجوزي : فقلوب الجهال تستشعر البُعْد؛ ولذلك تقع منهم المعاصي، إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفوا الأكُفَّ عن الخطايا، والمتيقظون علموا قربه فحضرتهم المراقبة، وكفتهم عن الانبساط .

وقال ابن القيم : فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذِكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلاً عن مواقعتها .

وقال أيضاً: فمن راقب الله في سره حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته .

الثاني عشر : أنها من خصال الإيمان وثمراته.

٣-الحديث دليل على استحباب السؤال في العلم .

قال تعالى (فاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) .

وقد قيل : السؤال نصف العلم .

٤-الحديث دليل على أنه ينبغي لمن حضر مجلس علم، ورأى أن الحاضرين بحاجة إلى معرفة مسألة ما، ولم يسأل عنها أحد، أن يسأل هو عنها . وإن كان هو يعلمها . لينتفع أهل المجلس بالجواب ، فقد كان غرض جبريلَ عليه السلام من أسئلته هذه أن يتعلم المسلمون ، وهذا ما بينه النبيُّ ﷺ بقوله : فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أتاكم يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُم ، وفي رواية أبي هريرة عند البخاري ومسلم : هَذَا جِبْرِيلُ أَرَادَ أَنْ تَعَلَّمُوا إِذْ لَمْ تَسْأَلُوا .

٥- الحديث دليل على أنه ينبغي للسائل حسن الأدب بين يدي معلمه ، وأن يرفق في سؤاله . قاله النووي .

و يشهد لهذا ما في رواية عطاء بن السائب عن يحيى بن يعمر فقال أدنو يا رسول الله قال نعم فدنا ثم قام فتعجبنا لتوقيره رسول الله ثم قال أدنو يا رسول الله قال نعم فدنا حتى وضع فخذه على فخذ رسول الله ﷺ .

وفي رواية علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن ابن عمر عند أحمد : ما رأينا رجلاً أشد توقيراً لرسول الله ﷺ من هذا .

قال الشافعي : لا يطلب هذا العلم أحد بالملك وعزة النفس فيفلح لكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلم وتواضع النفس أفلح .

وقال عبد الله بن المعتز : المتواضع في طلب العلم أكثرهم علماً كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء .

٦- قوله (فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْه) .

قيل : معناه أن الرجل الداخل وضع كفيه على فخذي نفسه وجلس على هيئة المتعلم .

وقيل : معناه وضع كفيه على فخذي النبي ﷺ .

وهذا الصحيح لحديث أبي هريرة وأبي ذر عند النسائي (... إذ أقبل رجل أحسن الناس وجهاً ، وأطيب الناس ريحاً، كأن ثيابه لم يمسّها دَنَس، حتى سلم في طرف البساط ، فقال : السلام عليك يا محمد، فرد عليه السلام، قال: أدْنو يا محمد ؟ قال : ادْنُهْ ؟ فما زال يقول : ادنو ؟ مراراً ويقول له : ادن ، حتى وضع يده على ركبتي رسول الله ﷺ) .

- واختلف العلماء في الحامل له على ذلك : والصحيح أن الحامل له على ذلك : الإيغال في التعمية لئلا يعرف ، فإن هذا فعل جفاة الأعراب ، وأما قول من قال : إنه فعل ذلك كحال المؤدب ، فإن ذلك ليس حال المؤدب .

٧- الحديث دليل على أن المَلَك يجوز أن يتمثل لغير النبي ﷺ فيراه ، ويتكلم بحضرته وهو يسمع ، وقد ثبت عن عمران بن حصين أنه كان يسمع كلام الملائكة .

٨- الحديث دليل لجمهور أهل السنة على أن الإسلام غير الإيمان ، (وهذا عند الاجتماع) .

فالإسلام هو الأعمال الظاهرة ، والإيمان هو الأعمال الباطنة .

لقوله تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) .

فهذه الآية أثبت لهم الإسلام ونفت عنهم الإيمان مما يدل على أن مرتبة الإيمان أعلى .

فالمراد بقوله (أسلمنا) أي : دخلنا في الإسلام على القول الصحيح في معنى الآية ، والدليل على أن المراد به الإسلام وليس الاستسلام قوله (وإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً) فدل على أنهم إذا أطاعوا الله ورسوله مع هذا الإسلام ، آجرهم الله على الطاعة .

قال ابن كثير : استفيد من هذه الآية أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة .

ولحديث الباب ، من أهم الأدلة على ذلك .

٩- وجوب الإيمان بالقدر .

في قوله ﷺ (وأن تؤمن بالقدر خيرِه وشره) فهل في القدر شر ؟

قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله : ليس في القدر شر ، وإنما الشر في المقدور ، يعني ليس فعل الله وتقديره شراً ، الشر في مفعولات الله لا في فعله ، والله لم يقدر هذا الشر إلا لخير .

كما قال تعالى (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس) هذا بيان سبب الفساد .

وأما الحكمة فقال (ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) ، إذاً هذه مصائب مآلها الخير .

١٠- الحديث دليل على أن حسن السؤال من أسباب تحصيل العلم .

قيل لابن عباس : بما بلغت العلم ؟ قال : بلسان سؤول ، وقلب عقول .

وقال الزهري : العلم خزانة مفتاحها المسألة .

وسئل الأصمعي : بما نلت ما نلت ؟ قال : بكثرة سؤالي ، وتلقفي الحكمة الشرود .

١١- الحديث دليل على مشروعية الرحلة في طلب الحديث .

ورحل جابر بن عبد الله شهراً كاملاً في مسألة .

وكان سعيد بن المسيب يقول : إن كنت لأسهر الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد .

١٢- الحديث دليل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب .

١٣- الحديث دليل على أنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم .

وقد سئل ﷺ عن أحب البقاع إلى الله ؟ فقال : لا أدري .وقد قالت الملائكة (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) .

وقال ﷺ كما في حديث جبريل : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل .

وقال ابن مسعود : من كان عنده علم فليقل ، ومن لم يكن عنده علم فليقل : الله أعلم .

وسئل الشعبي عن شيء فقال : لا أدري ، فقيل له : ألا تستحيي من قولك لا أدري وأنت فقيه العراقين ؟

فقال : لكن الملائكة لم تستح حين قالت سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا .

وقال البراء : لقد رأيتُ ثلاثمائة من أهل بدر ما منهم أحد إلا وهو يحبُّ أن يكفيَه صاحبُه الفتوى .

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى : أدركتُ عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله يسأل أحدهم عن المسألة فيردها إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول .

وقال ابن وهب : وكنت أسمعه – أي مالكاً – كثيراً ما يقول : لا أدري ، ولو كتبنا عن مالك لا أدري لملأنا الألواح .

وقال ابن عباس : إذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقاتله .

وقال الشعبي : لا أدري نصف العلم .

وعن عقبة بن مسلم قال : صحبت ابن عمر أربعةً وثلاثين شهراً فكان كثيراً ما يُسأل فيقول : لا أدري ، ثم يلتفت فيقول : أتدري ما يريدون هؤلاء ؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسراً إلى جهنم .

قال ابن عيينة : أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً .

وقال مالك : ما أفتيت حتى شهد لي سبعون من أهل المدينة .

قال ابن القيم : وقد حرم الله القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء وجعله من أعظم المحرمات بل جعله في المرتبة العليا, قال الله تعالى (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) .

وقيل : ينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري لكثرة ما يقولها .

قال ابن جماعة : واعلم أن قول (لا أدري) لا يضع من قدر العالم كما يظنه بعض الجهلة ، بل هي رفعة له ، لأنه دليل على عظم محله وعلى ورعه وعلى تقواه وعلى طهارة قلبه ، إنما يأنف من قول (لا أدري) من ضعفت ديانته وقلت معرفته .

وقد أدب الله العلماء بقصة موسى مع الخضر حيث لم يرد موسى العلم إلى الله تعالى لما سئل : هل أحد في الأرض أعلم منك ؟

١٣- الحديث دليل على إجابة السائل بأكثر مما سأل .

فإن النبي ﷺ لما أجاب السائل عن الساعة ؟ بجواب جامع ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، لم يكتف بذلك وإنما زاده أن بين له بعض أماراتها ، فقال : وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ ، فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ "، ثُمَّ تَلا النَّبِيُّ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَة) .

١٤- الحديث دليل على أنه لا يدري أحد متى الساعة ، وقد استأثر الله بعلمها ، فلم يطلع على ذلك ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً.

قال تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا) .

قال ابن كثير : أي ليس علمها إليك، ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها إلى الله، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين .

لكن هي قريبة : قال تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) .

١٥- أن للساعة علامات تدل على قربها .

وعلامات الساعة تنقسم إلى قسمين :

أشراط صغرى .

وهي التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة ، وتكون من نوع المعتاد ، كقبض العلم ، وظهور الجهل ، وشرب الخمر ، والتطاول في البنيان .

أشراط كبرى .

وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة ، وتكون غير معتادة الوقوع ، كظهور الدجال ، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها .

١٦- قوله (أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا) اختلف في معناها ؟

قال النووي : جاء في رواية : ربها ، وفي أخرى : بعلها ، قال الأكثرون من العلماء : هو إخبار عن كثرة السراري وأولادهن ، فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها .

وهذا أقوى الأقوال : أن يكثر التسري (اتخاذ الإماء) فيكون ولد الأمَة من سيدها بمنزلة سيدها لشرفه بأبيه، وقيل : أن تستخدم الأم كالأمَة ورجحه الحافظ ابن حجر .

فائدة : اختلف لما خص النبي ﷺ هاتين العلامتين فقط ؟

قيل : لأنهما من أول ما يظهر في الناس .

وقيل : تحذيراً للحاضرين .

وقيل : لأن البلية تقع بهما فيتسع هذا الأمر في الخلق .

١٧- قوله (وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ) .

(**الحفاة**) جمع حاف، وهو من لا نعل له في رجليه (**العراة**) جمع عار، وهو من لا ثياب على جسده. (**العالة**) جمع عائل، وهو الفقير (**رعاء الشاء**) جمع راع ، وهو الحافظ ، والشاء : جمع شاة ، وهي واحدة الضأن ، وإنما خص رعاء الشاء بالذكر لأنهم أضعف أهل البادية وقد جاء في حديث أبي هريرة (إذا رأيت الرعاء البهم) وعند البخاري (وإذا تطاول الإبل البهم) .

قال القرطبي : المقصود الإخبار عن تبدل الحال ، فاستولى أهل البادية على الأمر ، وتملكوا البلاد بالقهر ، فتكثر أموالهم وتنصرف همومهم إلى تشييد البنيان والتفاخر به ، وقد شاهدنا ذلك في هذه الأزمان . فمن علامات الساعة : أي يتفاخرون في طول بيوتهم ورفعتها ، يعني من علامات القيامة أن ترى أهل البادية ممن ليس لهم لباس ولا نعل بل كانوا رعاء الإبل والشاء يتوطّنون البلاد ، ويتخذون العقار ، ويبنون الدور والقصور المرتفعة .

١٨- قوله ﷺ (أتاكم يعلمكم دينكم) فيه أن الإيمان والإسلام والإحسان تسمى كلها ديناً .

فائدة : قال القرطبي : هذا الحديث يصلح أن يقال له أم السنة , لما تضمنه من جمل علم السنة .

١٩- جواز إطلاق رمضان على الشهر وأنه لا يلزم قول : شهر رمضان ، خلافاً لمن قال يكره قول (رمضان) من غير إضافة كلمة (شهر) ويدل لجواز ذلك :

قوله ﷺ (من صام رمضان إيماناً ...) متفق عليه .

وقوله ﷺ (لا تقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين ...) متفق عليه .

وقوله ﷺ (إذا جاء رمضان فتحت ...) متفق عليه .

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يقال رمضان على انفراده بحال ، وإنما يقال شهر رمضان .

وهذا قول أصحاب مالك .

واستدلوا بحديث (لا تقولوا رمضان ، فإن رمضان اسم من أسماء الله ، ولكن قولوا شهر رمضان) .

قال النووي : قولهم أنه اسم من أسماء الله ليس بصحيح ، ولم يصح فيه شيء ، وإن كان قد جاء به أثر ضعيف .

وقال ابن حجر : أخرجه ابن عدي في الكامل وضعفه بأبي معشر .

٢٠- أن العالم قد ينتقل بالمسؤول إلى ما ينفعه ، لأنه سأله عن الساعة ، فأخبره بأشراطها .

٦١-الثاني : عن أبي ذر جُنْدُب بنِ جُنادَةَ وأبي عبدِ الرحمانِ معاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنهما، عن رسولِ الله ﷺ، قَالَ : (اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) رواه الترمذي، وَقالَ : "حديث حسن".

(**اتق الله**) أي : اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

(**حيثما كنت**) أي : في أي مكان وأي زمان كنت فيه ، لوحدك أو مع الناس .

(**خالق الناس**) أي : عامل الناس .

(**بخلق حسن**) الخلق الحسن هو فعل الفضائل وترك القبائح .

١-الحديث دليل على وجوب تقوى الله في السر والعلن ومراقبته سبحانه لقوله (اتق الله حيثما كنت) حيث يراه الناس وحيث لا يرونه .

إن تقوى الله في الغيب، وخشيته في السر، دليل كمال الإيمان، وسبب حصول الغفران، ودخول الجنان، بها ينال العبد كريم الأجر وكبيره .

قال تعالى (إنما تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيم) .

وقال تعالى (إن الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِير) .

وقال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ . هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ . مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ . لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيد) .

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه (أسألك خشيتك في الغيب والشهادة) .

وخشية الله في الغيب والشهادة من المنجيات ، كما قال ﷺ (ثلاث منجيات ، وذكر منها : خشية الله في السر والعلن) .

وقال الشافعي : أعز ثلاثة : الجود من قلة ، والورع في خلوة ، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف .

وكان الإمام أحمد ينشد :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوتُ ولكنْ قل عليّ رقيب

ولا تحسبنّ اللهَ يغفلُ ســـــاعةً ولا أن ما يخفى عليـه يغيبُ

وقال الشاعر :

إذا خلوت بريبـــــة في ظـــلمة والنفس داعية إلَى الطغيان

فاستحي مِن نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

قال ابن رجب رحمه الله : وفي الجملة ، فتقوى الله في السر هو علامة كمال الإيمان ، وله تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبه الثناء في قلوب المؤمنين .

وقال رحمه الله في شرح حديث عمار : فأما خشية الله في الغيب والشهادة ، فالمعنى أن العبد يخشى الله سراً وإعلاناً وظاهراً وباطناً ، فإن أكثر الناس يرى أنه يخشى الله في العلانية وفي الشهادة ، ولكن الشأن في خشيته في الغيب إذا غاب عن أعين الناس ، وقد مدح الله من يخافه بالغيب :

قال تعالى (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) .

وقال تعالى (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ) .

وقال تعالى (لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ) .

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) .

ومن هنا عظم ثواب من أطاع الله سراً بينه وبينه ، ومن ترك المحرمات التي يقدر عليها سراً .

فأما الأول : فمثل قوله تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ..... فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

قال بعض السلف : أخفوا لله العمل فأخفى لهم الجزاء .

وفي حديث السبعة الذي يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) متفق عليه

وأما الثاني : فمثل قوله ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله) .

واعلم أن المراقبة هي التعبد لله بأسمائه: الرقيب، الحفيظ، السميع، العليم، الخبير، البصير، الشهيد، والمحصي ، فمن عقل هذه الأسماء وتعبد بمقتضاها حصلت له المراقبة.

الله هو الرقيب:

الله سبحانه هو الرقيب، يعلم أحوال عباده، ويعد أنفاسهم، حفيظ لا يغفل، وحاضر لا يغيب، قال تعالى في قول عيسى لربه: (فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) .

وقد سُئل بعضهم: بم يُستعان على غض البصر؟ فقال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى المنظور.

وقال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى. فسأله عن تفسير ذلك؟ فقال: كُن أبدًا كأنك ترى الله.

والله هو الحفيظ:

قال تعالى: (وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) فمن علم ذلك حفظ قلبه وجوارحه من معاصيه.

وهو العليم:

فمن علم أنه سبحانه عالم بكل شيء حتى بخطرات الضمائر، ووساوس الخواطر، راقب ربه واستحيا منه، وكف عن معاصيه، قال تعالى: (وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وهو الشهيد:

قال تعالى: (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

وهكذا بقية أسمائه الحسنى التي ذكرناها، فإن التعبد لله بمقتضاها يورث القلب مراقبة الرب عز وجل.

قال عامر بن قيس: ما نظرتُ إلى شيءٍ إلا رأيتُ الله تعالى أقرب إليه مني.

٣- من أقوال السلف في المراقبة .

قال عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطّاب ﷺ إلى مكّة فعرّسنا في بعض الطّريق فانحدر عليه راع من الجبل، فقال له: يا راعي، بعني شاة من هذه الغنم؟ فقال: إنّي مملوك، فقال: قل لسيّدك: أكلها الذّئب؟ قال: فأين الله ؟ قال: فبكى عمرﷺ ثمّ غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه، وأعتقه وقال: أعتقتك في الدّنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة .

قال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى، فسأله عن تفسيرها فقال: كن أبداً كأنك ترى الله عز وجل .

وسئل الحارث المحاسِبي عن المراقبة فقال: علم القلب بقرب الله تعالى .

قال أبو عثمان: قال لي أبو حفص: إذا جلست للنّاس فكن واعظاً لنفسك وقلبك، ولا يغرّنّك اجتماعهم عليك فإنّهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك .

وقيل لبعضهم: متى يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهَلَكة؟ فقال: إذا علم أنَّ عليه رقيباً .

قال ابن عطاء رحمه الله : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات .

قال الحسن رحمه الله: رحم الله عبداً وقف عند همِّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر .

قال ابن منظور رحمه الله: من راقب الله أحسن عمله .

قال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر؟ فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه .

وقال رجل لوُهَيب بن الوَرْد رحمه الله : عظني ؟ قال : اتق أن يكون الله أهون الناظرين إليك .

وقال بعضهم : ليس الخائف من بكى فعصر عينيه، إنما الخائف من ترك ما اشتهى من الحرام إذا قدر عليه .

قال ابن رجب : فتقوى الله في السر، هي علامة كمال الإيمان، ولها تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبها الثناء في قلوب المؤمنين .

قال أبو الدرداء : ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله، فيلقي الله له البغض في قلوب المؤمنين .

وقال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر، فيصبح وعليه مذلته .

وقال غيره: إن العبد ليذنب الذنب فيما بينه وبين الله ثم يجيء إلى إخوانه فيرون أثر ذلك الذنب عليه .

قال ابن القيم : وكان شجاع الكرماني يقول: من عمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغضَّ بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات، واعتاد أكل الحلال؛ لم تخط له فراسة، وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة .

٢- الموجب لخشية الله في السر والعلانية أمور :

منها : قوة الإيمان بوعده ووعيده على المعاصي .

ومنها : النظر في شدة بطشه وانتقامه ، وقوته وقهره ، وذلك يوجب للعبد ترك التعرض لمخالفته ، كما قال الحسن : ابن آدم ، هل لك طاقة بمحاربة الله ، فإن من عصاه فقد حاربه .

ومنها : قوة المراقبة له، والعلم بأنه شاهد ورقيب على قلوب عباده وأعمالهم، وأنه مع عباده حيث كانوا، كما دل القرآن على ذلك في مواضع كقوله تعالى (.. إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) وقال تعالى (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ).

قال بعض السلف : خف الله على قدر قدرته عليك واستحيي منه على قدر قربه منك .

وقال بعضهم لمن استوصاه : اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك .

دخل بعضهم غيضة ذات شجر ، فقال : لو خلوت ها هنا بمعصية من كان يراني ؟ فسمع هاتفاً بصوت ملأ الغيضة (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) .

٢-الحديث دليل على وجوب تقوى الله عز وجل لقوله : اتق الله .

والتقوى : أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

قال علي : وقد سئل عن التقوى فقال: هي الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقال بعضهم : تقوى الله تعالى ألا يراك حيث نهاك ولا يفقدك حيث أمرك .

- وللتقوى فضائل كثيرة ستأتي في بابها إن شاء الله .

٤- أن الحسنات يذهبن السيئات لقوله (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) .

قال ابن رجب : فإنه لما كان العبد مأموراً بالتقوى في السر والعلانية مع أنه لابد أن يقع منه أحياناً تفريط في التقوى ، إما بترك بعض المأمورات ، أو بارتكاب بعض المحظورات ، أمره أن يفعل ما يمحو به هذه السيئة ، وهي أن يتبعها بالحسنة وقد قال تعالى (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود (أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة ، ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فسكت النبي ﷺ حتى نزلت هذه الآية ، فدعاه فقرأها عليه ، فقال رجل : هذا له خاصة ؟ قال : بل للناس عامة) متفق عليه .

وقد وصى الله المتقين في كتابه بمثل ما وصى به النبي ﷺ في هذه الوصية في قوله تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ) .

ومعنى (ذكروا الله) أي : ذكروا عظمته وشدة بطشه وانتقامه ، وما توعد به على المعصية من العقاب ، فيوجب ذلك لهم الرجوع في الحال والاستغفار وترك الإصرار . (ابن رجب) .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الأسباب العشر التي تندفع بها عقوبة السيئات فقال : والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب: أن يتوب فيتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، أو يستغفر فيغفر له ، أو يعمل حسنات تمحوها فإن الحسنات يذهبن السيئات .

٥- الحث على مخالقة الناس بخلق حسن .

قال ابن رجب رحمه الله : هذا من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به، وإنما أفرد بالذكر للحاجة إلى بيانه، فإن كثيراً من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده ... إلى أن قال : والجمع بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيز جداً ، ولا يقوى عليه إلا الكمل من الأنبياء والصديقين .

- ولحسن الخلق فضائل كثيرة :

أولاً : أنه من أسباب دخول الجنة .

فقد سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الجنة فقال (تقوى الله وحسن الخلق) . رواه الترمذي

ثانياً : أنه أثقل شيء في الميزان .

قال ﷺ (ما من شيء أثقل في الميزان يوم القيامة من حسن الخلق) . رواه الترمذي

ثالثاً : أن حسن الخلق من كمال الإيمان .

قال ﷺ (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) . رواه أحمد

رابعاً : أن النبي ﷺ حصر دعوته في حسن الخلق .

قال ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) . رواه أحمد

خامساً : يدرك المؤمن بحسن خلقه درجة الصائم القائم .

قال ﷺ (إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) . رواه أبو داود

سادساً : بيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه .

قال ﷺ (أنا زعيم بيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه) . رواه أبو داود

زعيم : ضامن .

سابعاً : أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ صاحب الخلق الحسن .

قال ﷺ (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً) . رواه الترمذي

ثامناً : جعله من خصال التقوى .

قال تعالى (... أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين) .

قال الحسن : حسن الخلق : الكرم ، والبذلة ، والاحتمال .

وقال ابن المبارك : هو بسط الوجه ، وبذل المعروف ، وكف الأذى .

وسئل سلام بن أبي مطيع عن حسن الخلق فأنشد شعراً فقال :

تـــراه إذا ما جئتـــه متهـــللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ولو لم يكن في كفه غيرُ روحهِ لجاد بهـــا فليتـــق اللهَ ســـائلُه

هو البحرُ من أي النواحي أتيتَه فلجته المعروفُ والجودُ ساحلُه

٦٢–الثالث : عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما ، قَالَ : كنت خلف النَّبيّ ﷺ يوماً ، فَقَالَ : (يَا غُلامُ ، إِنِّي أعلّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسأَلِ الله ، وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللهِ ، وَاعْلَمْ : أنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبهُ اللهُ لَكَ ، وَإِن اجتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحفُ) رواه الترمذي، وَقالَ : "حديث حسن صحيح".

وفي رواية غيرِ الترمذي : (احْفَظِ الله تَجِدْهُ أَمَامَكَ ، تَعرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفكَ فِي الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ: أنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبكَ، وَمَا أصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَاعْلَمْ: أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً) .

١– الحديث دليل على حسن تعليم النبي ﷺ وتربيته .

٢– الحديث دليل على تواضع النبي ﷺ .

٣– الحديث دليل على جواز الإرداف على الدابة ، لكن بشرط أن تطيق ذلك .

٤– قوله ﷺ (احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ) أي : أن من حفظ الله وذلك بإقامة أوامره وترك نواهيه حفظه الله في الدنيا والآخرة ، ويحفظه في صحة بدنه وقوته وعقله وماله .

أمثلة لحفظ الله لمن حفظه :

كان العبد الصالح أبو الطيب الطبري رحمه الله ، قد جاوز المائة ، وهو متمتع بعقله وقوته وكافة حواسه ، حتى أنه سافر ذات مرة مع رفقة له ، فلما اقتربت السفينة من الشاطئ وثب منها إلى الأرض وثبة شديدة، عجز عنها بقية الذين كانوا معه على السفينة،

فاستغرب بعضهم هذه القوة الجسدية التي منحها الله إياه مع كبر سنه وشيخوخته ، فقال لهم الطبري : هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر ، فحفظها الله علينا في الكبر .

وكان العبد الصالح شيبان الراعي رحمه الله ، يرعى غنماً له في البرية ، فإذا جاءت الجمعة خط عليها خطاً ، ثم ذهب وشهد الجمعة والخطبة مع جماعة المسلمين ، ثم عاد إليها ، فيجدها كما هي لم تتحرك منها شيء ، ولم تجاوز الخط منها أي غنمة ، فسبحان الحافظ المعين .

وقال عروة بن الزبير : بلغت أسماء بنت أبي بكر مائة سنة لم يسقط لها سن ولم ينكر لها عقل .

- وقد يحفظ الله العبد بصلاحه في ولده وولد ولده :

كما قيل في قوله تعالى (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً) إنهما حفظا بصلاح أبيهما .

قال محمد بن المنكدر : إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وقريته التي هو فيها ، والدويرات التي حولها ، فما يزالون في حفظ الله وستر .

- ومن أنواع حفظ الله لمن حفظه في دنياه : أن يحفظه من شر كل من يريده بأذى من الجن والإنس .

كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً) قالت عائشة : يكفيه غم الدنيا وهمها .

وكتبت عائشة إلى معاوية : إن اتقيت الله كفاك الناس ، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً .

كتب بعض السلف إلى أخيه : فإنه من اتقى الله فقد حفظ نفسه ، ومن ضيع تقواه فقد ضيع نفسه ، والله الغني عنه .

- قال ابن رجب: ومن عجيب حفظ الله لمن حفظه أن يجعل الحيوانات المؤذية بالطبع حافظة له من الأذى:

كما جرى لسفينة مولى النبي ﷺ حيث كسر به المركب وخرج إلى جزيرة فرأى الأسد ، فجعل يمشي معه حتى دله على الطريق ، فلما أوقفه عليها جعل يهمهم كأنه يودعه ثم رجع عنه .

وكان العبد الصالح إبراهيم بن أدهم نائماً ذات مرة في بستان ، فجاءته حية في فمها نرجس ، فما زالت تذب عنه الحيات التي تريد به سوءاً وتدافع عنه ، حتى استيقظ من نومه .

قال مسروق بن الأجدع : من راقب الله في خطرات قلبه ، عصمه الله في حركات جوارحه .

وقال سعيد بن المسيب لابنه : لأزيدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك ، ثم تلا هذه الآية : وكان أبوهما صالحاً .

- ومن أعظم الحفظ حفظه تعالى لعبده في دينه ، فيحفظ عليه دينه وإيمانه في حياته من الشبهات المردية والشهوات المحرمة ، ويحفظ عليه دينه عند موته ، فيتوفاه على الإسلام .

ثبت في الصحيحين من حديث البراء أن النبي ﷺ علمه أن يقول عند منامه (اللهم إن قبضت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين) .

وفي حديث عمر عن النبي ﷺ أنه علمه أن يقول (اللهم احفظني بالإسلام قائماً ، واحفظني بالإسلام قاعداً ، واحفظني بالإسلام راقداً) رواه ابن حبان .

وكان النبي ﷺ إذا ودّع من يريد السفر يقول له : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك .

وكان عمر يقول في خطبته : اللهم اعصمنا بحفظك ، وثبتنا على أمرك .

وهذا كما حفظ يوسف عليه السلام قال (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) فمن أخلص لله خلصه الله من السوء والفحشاء منها من حيث لا يشعر ، وحال بينه وبين أسباب المعاصي المهلكة .

وسمع عمر رجلاً يقول : اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه ، فحُل بيني وبين معاصيك ، فأعجب ذلك عمر ودعا له بخير .

راود رجل امرأة عن نفسها وأمرها بغلق الأبواب ففعلت ، وقالت له : قد بقي باب واحد ، قال : وأي باب هو ؟ قالت : الباب الذي بيننا وبين الله ، فلم يتعرض لها .

وراود رجل أعرابية ، قال لها : ما يرانا إلا الكوكب ، قالت : فأين مكوكبها ؟

وهذا كله من ألطاف الله وحيلولته بين العبد ومعصيته .

- ومن أنواع حفظ الله لعبده في دينه : أن العبد قد يسعى في سبب من أسباب الدنيا ، إما بالولايات أو التجارات أو غير ذلك ، فيحول الله بينه وبين ما أراده لما يعلم له من الخيرة في ذلك وهو لا يشعر مع كراهته لذلك .
- وأعجب من هذا أن العبد قد يطلب باباً من أبواب الطاعات ، ولا يكون فيه خيرة ، فيحول الله بينه وبينه صيانة له وهو لا يشعر .

وكان بعض السلف يدور على المجالس ويقول : من أحب أن تدوم له العافية فليتق الله .

وقال بعض السلف : من حفظ الله فقد حفظ نفسه .

٥- أن من لم يحفظ الله لم يحفظه الله .

قال تعالى (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) .

وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

٦- قوله ﷺ (احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ) أي : من حفظ حدود الله وراعى حقوقه ، وجد الله معه في جميع الأحوال ، يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويؤيده ويسدده ، فإنه قائم على كل نفس بما كسبت ، وهو تعالى مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

كتب بعض السلف إلى أخ له : أما بعد ، فإن كان الله معك فمن تخاف ؟ وإن كان عليك فمن ترجو ؟ والسلام .

٧- قوله ﷺ (إِذَا سَأَلْت فَاسْأَلْ اللَّهَ) هذا أمر بإفراد الله عز وجل بالسؤال ونهي عن سؤال غيره من الخلق .

وقد أمر الله بسؤاله فقال (واسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ) .

وفي الترمذي عن أبي هريرة . قال : قال ﷺ (من لم يسأل الله يغضب عليه) .

واستحق الغضب لأمرين :

الأول : لأنه ترك محبوباً لله ، فإن الله يحب أن يسأل ، ذكر ذلك المناوي .

والثاني : لأن تركْ الدعاء دليل على الاستغناء عن الله ، ذكر ذلك المباركفوي .

وفي النهي عن سؤال المخلوق أحاديث كثيرة أيضاً ، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً منهم : أبو بكر ، وأبو ذر ، وثوبان ، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته فلا يسأل أحداً أن يناوله .

- واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين عقلاً وشرعاً وذلك من وجوه متعددة :

منها : أن السؤال فيه بذل لماء الوجه وذلة للسائل ، وذلك لا يصلح إلا لله وحده ، وهذا هو حقيقة العبادة التي يختص بها الإله الحق .

كان الإمام أحمد يقول في دعائه : اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك .

ولهذا كان عقوبة من أكثر المسألة بغير حاجة أن يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم كما ثبت في الصحيحين ، لأنه أذهب عز وجهه وصيانته وماءه في الدنيا ، فأذهب الله من وجهه في الآخرة جماله وبهاءه الحسي ، فيصير عظماً بغير لحم ، ويذهب جماله وبهاؤه المعنوي ، فلا يبقى له عند الله وجاهة .

ومنها : أن في سؤال الله عبودية عظيمة ، لأنها إظهار للافتقار إليه ، واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج ، وفي سؤال المخلوق ظلم ، لأن المخلوق عاجز عن جلب النفع لنفسه ودفع الضر عنها ، فكيف يقدر على ذلك لغيره .

قال بعض السلف : إني لأستحي من الله أن أسأله الدنيا وهو يملكها فكيف أسألها ممن لا يملكها ؟ يعني المخلوق .

ومنها : أن الله يحب أن يُسأل ، ويغضب على من لا يسأل ، فإنه سبحانه يريد من عباده أن يرغبوا إليه ويسألوه ويدعوه ويفتقروا إليه ، ويحب الملحين في الدعاء ، والمخلوق غالباً يكره أن يُسأل لفقره وعجزه .

قال أبو العتاهية :

الله يغضب إن تركتَ سؤاله وبُنيّ آدم حين يسأل يغضب

فاجعل سؤالك للإله فإنما في فضل نعمة ربنا نتقلب .

- **قال ابن تيمية** : سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد :

الأولى : مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي نوع من الشرك .

والثانية : مفسدة إيذاء المسؤول وهي نوع من ظلم الخلق .

والثالثة : فيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس ، فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة .

٨- قوله ﷺ (وَإِذَا اسْتَعَنْت فَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ) أرشد ﷺ بالاستعانة بالله بعد حفظه لحدود الله والقيام بدعائه .

وهذا منتزع من قوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وهي كلمة عظيمة جامعة يقال : إن سر الكتب الإلهية كلها ترجع إليها وتدور عليها .

وفي استعانة الله فائدتان :

إحداهما : أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات .

والثانية : أنه لا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله ، فمن أعانه الله فهو المعان ، ومن خذله الله فهو المخذول .

وفي الحديث (احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز) .

وكان ﷺ يقول في خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا (الحمد لله نستعينه ونستهديه) .

وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول : (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

٩- قوله ﷺ (وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوك بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوك إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَك، وَإِنْ اجْتَمَعُوا ....)

يريد بذلك أن ما يصيب العبد مما يضره أو ينفعه في دنياه فكله مقدر عليه ، ولا يمكن أن يصيبه ما لم يكتب له ولم يُقدَّر عليه ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعاً وقد دل القرآن أيضاً على مثل هذا :

كما قال تعالى (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) .

وقال تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) .

وقال سبحانه (قلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ) .

- ثم قال ابن رجب :

واعلم أن مدار هذه الوصية على هذا الأصل ، وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه وراجع إليه ، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر ، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة ، علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع ، المعطي المانع ، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل ، وإفراده بالسؤال والتضرع والابتهال ، وإفراده أيضاً بالعبادة والطاعة ، لأن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار ، ولهذا ذم الله سبحانه من يعبد ما لا ينفع ولا

يضر ولا يغني عن عابده شيئاً ، وأيضاً فكثير ممن لا يحقق الإيمان في قلبه يقدّم طاعة مخلوق على طاعة الله رجاء نفعه أو دفعاً لضره ، فإذا تحقق العبد تفرد الله وحده بالنفع والضر وبالعطاء والمنع ، أوجب ذلك إفراده بالطاعة والعبادة ، ويقدم طاعته على طاعة الخلق كلهم جميعاً ، كما يوجب ذلك أيضاً إفراده سبحانه بالاستعانة به والطلب منه .

١٠-قوله ﷺ (تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفُكَ فِي الشِّدَّةِ) يعني أن العبد إذا اتقى الله ، وحفظ حدوده ، وراعى حقوقه في حال رخائه ، فقد تعرف بذلك إلى الله ، وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة ، فعرفه ربه في الشدة ، ورعى له تعرفه إليه في الرخاء ، فنجّاه من الشدائد بهذه المعرفة ، وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه ومحبته له وإجابته لدعائه .

فمن عامل الله بالتقوى والطاعة في حال رخائه ، عامله الله باللطف والإعانة في حال شدته .

- لأن معرفة الله لعبده نوعان :

الأولى : معرفة عامة ، وهي علمه سبحانه بعباده ، واطّلاعه على ما أسروه وما أعلنوه .

كما قال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ) .

وقال تعالى (هو أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ) .

والثاني : معرفة خاصة ، وهي تقتضي محبته لعبده ، وتقريبَه إليه ، وإجابة دعائه ، وإنجاءه من الشدائد ، وهي المشار إليها بقوله ﷺ فيما يحكي عن ربه (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ...) .

قال الضحاك : اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ، وإن يونس عليه السلام كان يذكر الله كثيراً ، فلما وقع في بطن الحوت قال الله (فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ . لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) ، وإن فرعون كان طاغياً ناسياً لذكر الله ، فلما أدركه الغرق ، قال : آمنت ، فقال الله (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) .

لما هرب الحسن البصري دخل إلى بيت حبيب أبي محمد ، فقال له حبيب : يا أبا سعيد ، أليس بينك وبين ربك ما تدعوه ، فيسترك مِن هؤلاء ؟ ادخل البيت ، فدخل ، ودخل الشُّرط على أثره ، فلم يروه ، فذُكر ذلك للحجاج ، فقال : بل كان في البيت ، إلا أنّ الله طمس أعينهم فلم يروه .

وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد ، فليكثر الدعاء في الرخاء) .

قال رجل لأبي الدرداء أوصني ؟ فقال : اذكر الله في السراء يذكرك في الضراء .

وعنه أنه قال : ادعُ الله في يوم سرّائك لعله أن يستجيب لك في يوم ضرائك .

١١- قوله ﷺ (احفظ الله يحفظك) ومن أعظم ما يجب حفظه من أوامر الله :

أولاً : الصلاة .

قال تعالى (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) .

ثانياً : الطهارة .

قال ﷺ (ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) رواه أحمد .

ثالثاً : الأيْمان .

قال تعالى (وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ) .

رابعاً : حفظ الرأس والبطن .

قال ﷺ (الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى) رواه الترمذي

خامساً : حفظ الفرج .

قال تعالى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ) .

١٢- أن الجزاء من جنس العمل ، فمن حفظ الله حفظه الله ، وهذه قاعدة شرعية جاءت نصوص كثيرة تدل عليها :

قال تعالى (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) .

وقال تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) .

وقال تعالى (أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) .

وقال ﷺ (من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة) رواه مسلم .

وقال ﷺ (من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة) رواه مسلم .

وقال ﷺ (احفظ الله يحفظك) .

وقال ﷺ (والشاة إن رحمتها رحمك الله) رواه أحمد .

وقال ﷺ (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) متفق عليه .

وقال ﷺ (من وصل صفاً وصله الله) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (من كان له وجهان في الدنيا ، كان له لسانان من نار يوم القيامة) رواه أبو داود .

١٣- قوله (وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ) يشمل النصر في الجهادين، جهاد العدو الظاهر (وهو جهاد الكفار) وجهاد العدو الباطن (وهو جهاد النفس والهوى) فمن صبر فيهما، نُصِر وظفر بعدوهِ، ومن لم يصبر فيهما وجَزِع، قهِرَ وصار أسيراً لعدوه أو قتيلاً له .

قال تعالى (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

قال عمر لأشياخ من بني عبس : بم قاتلتم الناس ؟ قالوا : بالصبر ، لم نلق قوماً إلا صبرنا لهم كما صبروا لنا .

وقال بعض السلف : كلنا يكره الموت ، وألم الجراح ، ولكن نتفاضل بالصبر .

وقال بعض العلماء : الشجاعة صبر ساعة .

قال أبو الطيب المكي : اعلم أن الصبر سبب دخول الجنة ، وسبب النجاة من النار ، لأنه جاء في الخبر (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات) فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ليدخل الجنة ، وإلى صبر عن الشهوات لينجو من النار .

وقال في مقام آخر : واعلم أن كثرة معاصي العباد في شيئين : قلة الصبر عما يحبون ، وقلة الصبر على ما يكرهون .

وللصبر فضائل عظيمة سبقت في حديث (الطهور شطر الإيمان وفيه : والصبر ضياء) .

١٤- قوله (وَأَنْ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) فيه البشارة العظيمة بأن تفريج الكربات وإزالة الشدائد مقرون بالكرب، فكلما كرب الإنسان فرج الله عنه . ويشهد لهذا :

قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا) .

وقوله تعالى (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا) .

وقوله تعالى (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) .

قال ابن رجب رحمه الله: وكم قص سبحانه من قصص تفريج كربات أنبيائه عند تناهي الكرب، كإنجاء نوح ومن معه في الفلك، وإنجاء إبراهيم من النار ، وفدائه لولده الذي أمر بذبحه ، وإنجاء موسى وقومه من اليم ، وإغراق عدوهم .

وقال رحمه الله : ومن لطائف اقتران الفرج بالكرب واليُسر بالعسر : أن الكربَ إذا اشتد وعظُمَ وتناهي ، حصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين ، وتعلق قلبه بالله وحده ، وهذا هو حقيقة التوكل على الله ، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلبُ بها الحوائج ، فإن الله يكفي من توكل عليه ، كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) .

قال الفضيل : لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً ، لأعطاك مولاك كل ما تريد .

١٥-فوائد البلايا والمصائب :

منها : تكفير الخطايا بها ، والثواب على الصبر عليها .

ومنها : تذكر العبد بذنوبه ، فربما تاب ورجع منها .

ومنها : انكسار العبد لله عز وجل وذله له .

ومنها : أنها توجب للعبد الرجوع بقلبه إلى الله تعالى ، والوقوف ببابه والتضرع له والاستكانة .

ومنها : أن البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى مخلوق ويوجب له الإقبال على الخالق وحده .

وقد حكى الله عن المشركين إخلاص الدعاء له عند الشدائد ، فكيف بالمؤمن .

فالبلاء يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه ، وذلك أعلى المقامات وأشرف الدرجات .

٦٣-الرابع : عن أنسٍ ﷺ ، قَالَ : إِنَّكُمْ لَتعمَلُونَ أعْمَالاً هي أدَقُّ في أعيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ ، كُنَّا نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رَسُول الله ﷺ مِنَ المُوبِقاتِ . رواه البخاري .

وَقالَ : ((المُوبقاتُ)) : المُهلِكَاتُ .

١-الحديث فيه التحذير من محقرات الذنوب .

والمحقرات هي : ما لا يبالي المرء بها من الذنوب .

وقال العيني في عمدة القاري: هي الذنوب التي يحتقرها فاعلها .

عَنِ الْحَارِثِ بْنِ سُوَيْدٍ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ حَدِيثَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَالآخَرُ عَنْ نَفْسِهِ قَالَ (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِه فَقَالَ بِهِ هَكَذَا، قَالَ أَبُو شِهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ). رواه البخاري

قال الحافظ في الفتح: قوله (المؤمِنَ يَرى ذُنوبَهُ كأنَّه قاعِدٌ تحتَ جَبَلٍ يَخافُ أنْ يقعَ عَليه) قال ابن أبي جمرة : السبب في ذلك أن قلب المؤمن منور ، فإذا رأى من نفسه ما يخالف ما ينور به قلبه عظم الأمر عليه ، والحكمة في التمثيل بالجبل أن غيره من المهلكات قد يحصل التسبب إلى النجاة منه بخلاف الجبل إذا سقط على الشخص لا ينجو منه عادة ، وحاصله أن المؤمن يغلب عليه الخوف لقوة ما عنده من الإيمان فلا يأمن العقوبة بسببها ، وهذا شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة يستصغر عمله الصالح ويخشى من صغير عمله السيئ .

قوله (وإن الفاجر يرى ذُنوبَه كذُباب) في رواية أبي الربيع الزهراني عن أبي شهاب عند الإسماعيلي (ذُنوبَه كأنَّها ذباب مَرَّ على أنفه) أي : ذنبُه سهلٌ عنده ، لا يعتقد أنه يحصل له بسببه كبير ضررٍ، كما أن ضررَ الذُّباب عنده سهل، وكذا دفعه عنه .

قوله (فقال به هكذا) أي : نحاه بيده، أو دفعه، هو مِن إطلاق القول على الفعل، قالوا : وهو أبلغ .

قال المحبُّ الطَّبري :إنَّما كانت هذه صفة المؤمن لشدَّة خوفه مِن الله ومِن عقوبته; لأنَّه على يقين مِن الذنب، وليس على يقينٍ من المغفرة ، والفاجر قليل المعرفة بالله؛ فلذلك قلَّ خوفُه، واستهان بالمعصية .

وقال ابن أبي جمرة: السَّبب في ذلك أنَّ قلب الفاجرِ مُظلمٌ ، فوُقوع الذنبِ خفيفٌ عنده ، ولهذا تجد مَن يقع في المعصيةِ إذا وُعظ يقول: هذا سهل .

قال: ويُستفاد من الحديث أنَّ قلَّة خوف المؤمن ذُنوبَه، وخِفَّتَه عليه يدلُّ على فُجوره .

قال: الحكمةُ في تشبيه ذنوبِ الفاجر بالذُّبابِ ،كونُ الذُّباب أخفَّ الطَّير وأحقرَه، وهو مما يعاين ويُدفع بأقل الأشياء .

قال: وفي ذِكر الأنف مُبالغةٌ في اعتقاده خِفَّة الذَّنب عنده ، لأنَّ الذُّباب قلَّما ينزلُ على الأنف؛ وإنَّما يقصد غالبًا العينَ .

قال: وفي إشارتِه بيدِه تأكيدٌ للخِفَّة أيضًا؛ لأنه بهذا القدر اليسير يدفع ضرره .

قال: وفي الحديث ضربُ المثل بما يُمكن، وإرشاد إلى الحض على محاسبة النفس واعتبار العلامات الدالة على بقاء نعمةِ الإيمان، وفيه أنَّ الفجورَ أمرٌ قلبي كالإيمان، وفيه دليلٌ لأهل السنة لأنَّهم لا يُكفِّرون بالذنوب ورد على الخوارج وغيرهم ممن يُكفِّر بالذنوب.

٢- قال ابن بطال: يُؤخذ منه أنه ينبغي أن يكونَ المؤمن عظيمَ الخوف من الله تعالى مِن كل ذنب – صغيرًا كان أو كبيرًا–؛ لأن الله تعالى قد يُعذِّب على القليلِ؛ فإنه لا يُسأل عما يَفعل – سبحانه وتعالى .

٣- عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِي أن رَسُولَ الله ﷺ قال (إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبَ، فَإِنَّ مَثَلَ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِبَطْنِ وَادٍ ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَذَا بِعُودٍ حَتَّى جَمَعُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْه). رواه أحمد

قال الغزالي : صغائر المعاصي يجرّ بعضها إلى بعض حتىّ تفوت أهل السّعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة .

وقال : تصير الصغيرة كبيرة بأسباب، منها الاستصغار والإصرار فإن الذنب كلما استعظمه العبد صغر عند الله، وكلما استصغره عظم عند الله ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به ، واستصغاره يصدر عن الألفة به ، وذلك يوجب شدة الأثر في القلب المطلوب تنويره بالطاعة والمحذور تسويده بالخطيئة.

وقال الحكيم الترمذي : إذا استخف بالمحقرات دخل التخلط في إيمانه، وذهب الوقار وانتقص من كلّ شيء بمنزلة الشمس ينكسف طرف منها فبقدر ما انكسف ولو كرأس إبرة ينقص من شعاعها وإشراقها على أهل الدنيا وخلص النقصان إلى كل شيء في الأرض ، فكذا نور المعرفة ، ينقص بالذنب على قدره فيصير قلبه محجوباً عن الله ، فزوال الدنيا بكليتها أهون من ذلك، فلا يزال ينقص ويتراكم نقصانه وهو أبله لا ينتبه لذلك حتى يستوجب الحرام .

وقال الغزالي : وتواتر الصّغائر عظيم التأثير في سواد القلب وهو كتواتر قطرات الماء على الحجر فإنه يحدث فيه حفرة لا محالة مع لين الماء وصلابة الحجر.

قال العلائي : أخذ من كلام حجة الإسلام : أن مقصود الحديث الحث على عدم التهاون بالصغائر ، ومحاسبة النفس عليها وعدم الغفلة عنها ، فإن في إهمالها هلاكه ، بل ربما تغلب الغفلة على الإنسان فيفرح بالصغيرة ويتحجج بها ويعد التمكن منها نعمة ، غافلاً عن كونها وإن صغرت سبب للشقاوة ، حتى أن من المذنبين من يتمدح بذنبه لشدة فرحه بمفارقته فيقول: أما رأيتني كيف مزقت عرضه؟

ويقول المناظر : أما رأيتني كيف فضحته وذكرت مساوئه حتى أخجلته ؟ ، وكيف استخففت به وحقرته ؟

ويقول التاجر : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وغبنته ؟ وذلك وأمثاله من المهلك .

٤- وها هنا أمور ينبغي التنبيه عليها :

الأمر الأول: أن الإصرار يُصيِّر الصغيرة كبيرة، كما قال شيخ الإسلام: إذا أصر على الصغيرة صارت كبيرة، وإذا تاب منها غفرت .

والأمر الثاني: أن محقرات الأعمال وصغار الذنوب لها قدرها من الحساب والعذاب، فمتى اجتمعت على المرء أهلكته، ولذلك قال النبي ﷺ (إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه) .

وقد ضرب رسول الله ﷺ لهن مثلاً فقال: (كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً فأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها). رواه أحمد، وصححه الألباني بطرقه.

وقال رسول الله ﷺلعائشة (إياك ومحقرات الأعمال، فإن لها من الله طالباً) رواه أحمد وابن ماجه .

قال القاري في المرقاة: (طالباً) أي نوعاً من العذاب يعقبه، فكأنه يطلبه طلباً لا مرد له، فالتنوين للتعظيم، أي طالباً عظيماً ، فلا ينبغي أن يغفل عنه بل ينبغي أن يخشى منه .

٥- ومن أعظم مصائب هذه المحقرات أنها تُظلِم القلب وتُسوِّده، إذا لم يتب منها صاحبها ويستغفر الله تعالى.

فقد قال ﷺ (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه: وهو الران الذي ذكر الله (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون). رواه الترمذي

٦- أن الوقوع في الصغائر خطوة من خطوات الشيطان للوقوع في الكبائر.

وقد قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيم) .

قال السعدي: هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا في السلم كافة؛ أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً، وأن لا يكونوا ممن اتخذ إلهه هواه، إن وافق الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه ولما كان الدخول في السلم كافة، لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان قال: (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أي: في العمل بمعاصي الله (إنه لكم عدو مبين) والعدو المبين، لا يأمر إلا بالسوء والفحشاء، وما به الضرر عليكم، ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل، قال تعالى (فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات) أي: على علم ويقين (فاعلموا أن الله عزيز حكيم) وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر الحكيم، إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجناة.

٦٤-الخامس : عن أبي هريرة ﷺ عن النَّبيّ ﷺ قَالَ : (إنَّ الله تَعَالَى يَغَارُ، وَغَيرَةُ الله تَعَالَى، أنْ يَأتِيَ المَرْءُ مَا حَرَّمَ الله عَلَيهِ).

متفق عَلَيهِ

١-الحديث دليل على وجوب الابتعاد عن معصية الله .

٢- الحديث دليل على الحذر من غضب الله وانتقامه ، وأن الله يغار إذا انتهكت محارمه .

وقد قال ﷺ لما خطب في كسوف الشمس (لا أحد أغير من الله ، أن يزني عبده ، أو تزني أمتَه) .

٣- أن الله حرم علينا أشياء لمصلحتنا ، فالله لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة الطائعين .

٤- إثبات الغيرة لله تعالى ، وأنه سبحانه يغار إذا انتهكت محارمه ، وكان ﷺ أغير الخلق على الأمة .

قال ﷺ (أتعجبون من غيْرة سعد ؟ لأنا أغير منه ، والله أغير مني) .

وقال ﷺ في خطبة الكسوف (يا أمة محمد ما أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته) .

وفي الصحيح قال ﷺ (لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن) .

٥- ينبغي على المسلم أن يغار إذا انتهكت محارم الله .

٦٥-السادس : عن أبي هريرةَ ﷺ : أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ ، يقُولُ : ((إنَّ ثَلاثَةً مِنْ بَني إسْرَائِيلَ : أبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى، أَرَادَ اللهُ أنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكاً ، فَأَتَى الأَبْرَصَ، فَقَالَ : أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : لَوْنٌ حَسنٌ، وَجِلدٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ ؛ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِيَ لَوناً حَسناً . فَقَالَ: فَأيُّ المَالِ أَحَبُّ إِليكَ ؟ قَالَ: الإبلُ – أَوْ قالَ : البَقَرُ شكَّ الرَّاوي – فَأُعطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ ، فَقَالَ : بَارِكَ الله لَكَ فِيهَا .

فَأَتَى الأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذِرَنِي النَّاسُ ؛ فَمَسَحَهُ فَذَهبَ عَنْهُ وأُعْطِيَ شَعراً حَسَناً . قالَ : فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : البَقَرُ ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً ، وَقالَ : بَارَكَ الله لَكَ فِيهَا .

فَأَتَى الأَعْمَى ، فَقَالَ : أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : أَنْ يَرُدَّ الله إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ النَّاسَ؛ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرهُ. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الغَنَمُ ، فَأُعْطِيَ شَاةً والداً ، فَأَنْتَجَ هذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا ، فَكانَ لِهذَا وَادٍ مِنَ الإبلِ ، وَلِهذَا وَادٍ مِنَ البَقَرِ ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ .

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ ، فَقَالَ : رَجلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلا بَلاغَ لِيَ اليَومَ إلاَّ باللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذي أعْطَاكَ اللَّونَ الحَسَنَ ، والجِلْدَ الحَسَنَ ، وَالمَالَ ، بَعِيراً أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي ، فَقَالَ : الحُقُوقُ كثِيرةٌ . فَقَالَ : كأَنِّي أعْرِفُكَ ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فقيراً فأعْطَاكَ اللهُ !؟ فَقَالَ : إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المالَ كَابِراً عَنْ كَابِرٍ ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ الله إِلَى مَا كُنْتَ .

وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذا ، وَرَدَّ عَلَيهِ مِثْلَ مَا رَدَّ هَذَا ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ .

وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ وابنُ سَبيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي ، فَلا بَلاَغَ لِيَ اليَومَ إلاَّ بِاللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسأَلُكَ بالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفري ؟ فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أعمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ فَوَاللهِ ما أَجْهَدُكَ اليَومَ بِشَيءٍ أَخَذْتَهُ للهِ ﷻ. فَقَالَ : أَمْسِكْ مالَكَ فإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ . فَقَدْ رضي الله عنك، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيكَ)) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

و((النَّاقةُ العُشَرَاءُ)) بضم العين وفتح الشين وبالمد : هي الحامِل . قوله : ((أَنْتَجَ)) وفي رواية : ((فَنتَجَ)) معناه : تولَّى نِتاجها ، والناتج لِلناقةِ كالقابِلةِ للمرأةِ . وقوله : ((وَلَّدَ هَذَا)) هُوَ بتشديد اللام : أي تولى ولادتها ، وَهُوَ بمعنى أنتج في الناقة ، فالمولّد ، والناتج ، والقابلة بمعنى ؛ لكن هَذَا لِلحيوان وذاك لِغيرِهِ . وقوله : ((انْقَطَعَتْ بي الحِبَالُ)) هُوَ بالحاءِ المهملةِ والباءِ الموحدة : أي الأسباب . وقوله : ((لا أَجْهَدُكَ)) معناه : لا أشق عليك في رد شيء تأخذه أَوْ تطلبه من مالي . وفي رواية البخاري : ((لا أَحمَدُكَ)) بالحاءِ المهملة والميمِ ومعناه : لا أحمدك بترك شيء تحتاج إِلَيْه، كما قالوا : لَيْسَ عَلَى طولِ الحياة ندم : أي عَلَى فواتِ طولِها .

١-هذا الحديث عظيم وفيه معتبر : فإن الأَوَلَين جحدا نعمة الله ، فما أقرا لله بنعمه ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها ، ولا أديا حق الله فيهما بنعمه فحل عليهما السخط ، وأما الأعمى فاعترف بنعم الله ونسبها إلى من أنعم عليه بها ، وأدى حق الله فيها ، فاستحق الرضا من الله .

٢- أن شكر النعمة يكون بثلاثة أمور وهي :

- **الإقرار بالنعمة** ، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) .
- **ونسبتها إلى المنعم** ، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .
- **وبذلها فيما يجب** ، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً) .

٣-بيان أن زعْم الإنسان استحقاقه النعم المستادة إليه بعد ضراء أصابته منافٍ لكمال التوحيد .

٤- أن من كمال التوحيد نسبة النعمة إلى الله ، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) .

٥-أن الرسول ﷺ يقص علينا أنباء بني إسرائيل لأجل الاعتبار والاتعاظ .

٦-إثبات معجزة النبي ﷺ .

٧- أن الدنيا دار ابتلاء وامتحان .

كما قال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

٨-أن الابتلاء يكون بالنفس والمال والولد .

٩- أن المال فتنة لأكثر الناس .

١٠- فيه مصداق لقوله تعالى (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) .

١١-أن الأكثر من الناس لا يشكر .كما قال تعالى (وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور) وقال تعالى (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ).

١٢-نسبة النعمة إلى غير الله كفرٌ بها .

١٣- أن نسبة النعمة لغير الله سبب لزوالها .

١٤-أن شكر النعم سبب لبقائها وزيادتها .

كما قال تعالى (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

١٥-أن الابتلاء يكون بالخير والشر .

كما قال تعالى (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)

١٦-فيه مصداق لقول عبد الرحمن بن عوف (ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر). رواه الترمذي .

١٧-بيان قدرة الله بإبراء الأبرص والأقرع والأعمى .

١٨-قدرة الملائكة على التشكل بصورة البشر .

١٩-أن الملائكة أجسام وليسوا أرواح أو معاني .

٢٠-فضل الصدقة والحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم .

٢١-أن للمعاصي أخوات ، ربما تكون أكبر منها ، فالبخل معصية جر صاحبه إلى الكذب وجحد نعمة الله .

٢٢-من أقبح الصفات البخل ، فإنه حمل الشخصين على نسيان نعمة الله عليهما وجحدها .

٢٣-أن البخل والكذب موجبان لغضب الله وسخطه .

٢٤-الصدق والكرم من الصفات الحميدة .

٢٥-أن بركة الله لا نهاية لها .

٢٦-أنه لا شيء أحب للمبتلى بالمرض من ذهاب مرضه ومعافاته .

٢٧-أن الله هو الذي يعطي ويمنع ، ويغني ويفقر ، فعلى العبد أن يعلق قلبه بالله تعالى .

٢٨-أن من الأدب أن تنسب الشفاء والغنى إلى الله وحده (كنت أعمى فرد الله بصري) .

٢٩-بيان أن شكر كل نعمة بحسبها .

٣٠-أن كثرة المال ليست دليلاً على حب الله للعبد .

٣١-أن الملائكة يتشكلون .

٣٢-جواز الدعاء المعلق ، إن كنت كاذباً فصيرك الله ، وفي دعاء الاستخارة (اللهم إن كنت تعلم أنّ هذا الأمر ..) .

٣٣-أن الابتلاء قد يكون عاماً وظاهراً .

٣٤-فضيلة الورع والزهد .

٣٥-ثبوت الإرث في الأمم السابقة .

٣٦-إثبات صفة الرضا لله .

٣٧-إثبات صفة السخط لله .

٣٨-جواز قول المرء لأخيه : أنا بالله ثم بك .

٣٩- على الإنسان أن يبحث عن الأسباب التي تؤدي إلى رضا الله .

٤٠- ينبغي على العبد أن يعرف الأسباب التي تؤدي إلى سخط الله ليتجنبها .

٦٦-السابع : عن أبي يعلى شداد بن أوس ﷺ ، عن النَّبيّ ﷺ ، قَالَ : ((الكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بعدَ المَوتِ ، والعَاجِزُ مَنْ أتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ)) رواه الترمذي ، وَقالَ : ((حديث حسن)) .

قَالَ الترمذي وغيره من العلماء : معنى ((دَانَ نَفْسَهُ)) : حاسبها .

(**الكَيِّسُ**) أي : العاقل .

(**من دَانَ نَفْسَهُ**) أي : حاسبها .

١-الحديث دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يحاسب نفسه في الدنيا قبل أن يحاسب في الآخرة .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) أي : وليتأمل كل إنسان ماذا قدم من الأعمال ليوم القيامة ، وهل يصلح أن تلقى الله به يوم العرض الأكبر على الله أو لا يصلح .

قال ابن كثير : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم .

- والغد في الأصل اليوم الذي بعد يومك ، والمراد بـ(غد) يوم القيامة ، وسمي بـ(غد) لتحقق وقرب وقوعه ، لأنه آت وكل آت قريب قال تعالى (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) .

قال قتادة : قرب الله القيامة حتى جعلها غداً .

- الآية دالة على وجوب محاسبة النفس .

قال ابن القيم : وقد دل على وجوب محاسبة النفس قوله تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ) يقول تعالى : لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال ، أمن الصالحات التي تنجيه ، أم من السيئات التي توبقه ؟

٢- في محاسبة النفس عدة مصالح :

منها : الاطلاع على عيوبها ، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه من إزالته .

قال ابن القيِّم رحمهُ الله : الله – سبحانه– إذا أراد بعبدِه خيرًا أنساهُ رُؤيةَ طاعاته، ورفعها مِن قلبِه ولسانه.

فإذا ابتُلي بالذَّنب جعلهُ نُصبَ عينيْه، ونسي طاعاتِه، وجعل همَّه كله بذنبِه.

فلا يَزال ذنبُه أمامَه –إن قام، أو قعدَ، أو غدا، أو راحَ–؛ فيكونُ هذا عَينُ الرَّحمةِ في حقِّه.

كما قال بعضُ السَّلف : إن العبدَ ليَعملُ الذَّنبَ فيَدخُل به الجنَّة، ويعمل الحسنةَ فيدخل بها النَّار ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : يعملُ الخطيئةَ فلا تَزالُ نُصب عينيْه كلَّما ذكَرَها بَكى، وندِمَ، وتاب ، واستغفر، وتضرَّع، وأناب إلى الله، وذلَّ له وانكسر، وعمِل لها أعمالًا؛ فتكون سببَ الرَّحمةِ في حقِّه.

ويعمل الحسنةَ؛ فلا تَزالُ نُصبَ عينَيْه؛ يَمُنُّ بها، ويَراها، ويعتدُّها على ربِّه، وعلى الخَلْق، ويتكبَّر بها، ويتعجَّب مِن النَّاس كيف لا يُعظِّمونَه ويُكرِمونَه ويُجلُّونه عليها!!فلا تزالُ هذه الأمور به؛ حتَّى تَقوى عليه آثارُها؛ فتُدخله النَّار.

فعلامةُ السَّعادةِ :أن تكونَ حسناتُ العبدِ خلفَ ظهرِه، وسيِّئاتُه نُصبَ عينَيْه.

وعلامةُ الشَّقاوة :أن يجعلَ حسناتِه نُصبَ عَينيه، وسيِّئاتِه خلفَ ظهرِه. (الفوائد)

ومنها : أنه يعرف بذلك حق الله تعالى عليه ، ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه فإن عبادته لا تكاد تجدي عليه ، وهي قليلة المنفعة جداً ، فمن أنفع ما للقلب النظر في حق الله تعالى على العبد .

٣- ترك محاسبة النفس ضرر عظيم :

قال ابن القيم : أضر ما عليه الإهمال وترك المحاسبة والاسترسال ، وتسهيل الأمور وتمشيتها ، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك ، وهذه حال أهل الغرور : يغمض عينية عن العواقب، ويمشّي الحال، ويتكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب، وأنس بها، وعسر عليها فطامها.

٤- محاسبة النفس نوعان :

نوع قبل العمل ، ونوع بعده .

- محاسبة النفس قبل العمل :

أن يقف عند أول همِهِ وإرادته ، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه .

وقد ذكر ابن القيم أن الإنسان إذا أقدم على عمل فإنه ينظر هل يريد به وجه الله وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يقدم عليه وإن أفضى إلى مطلوبه ، فلماذا ؟

لئلا تعتاد النفس الشرك ، ويخفّ عليها العمل لغير الله ، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله ، حتى يصير أثقل شيء عليها .

- محاسبة النفس بعد العمل :

محاسبة النفس بعد العمل ثلاثة أنواع :

أحدها : محاسبتها على طاعة قصّرت فيها من حق الله فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي .

الثاني : أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً من فعله .

الثالث : أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد ، لمَ فعله ؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة ؟ فيكون رابحاً ، أو أراد به الدنيا وعاجلها ، فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به .

٥- ما الذي يعين على محاسبة النفس ومراقبتها ؟

قال ابن القيم : يعينه على هذه المراقبة والمحاسبة : معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غداً إذا صار الحساب إلى غيره ، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً .

ويعينه أيضاً : معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس ، والنظر إلى وجه الرب سبحانه ، وخسارتها : دخول النار والحجاب عن الرب تعالى ، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم .

٦- من أقوال السلف :

قال عمر : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا .

وقال الحسن : لا تلقى المؤمن إلا يحاسب نفسه : ماذا أردتِ تعملين ؟ وما أردتِ تأكلين ؟

وقال ميمون بن مهران : إن التقي أشد محاسبة لنفسه من سلطان عاص ومن شريك شحيح .

وقال الحسن : المؤمن قوّام على نفسه ، يحاسب نفسه لله ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا .

وقال مالك بن دينار : رحم الله عبداً قال لنفسه : ألستِ صاحبة كذا ؟ ألستِ صاحبة كذا ؟ ثم زمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله فكان لها قائد .

وقال الحسن : رحم الله عبداً وقف عند همهِ ، فإن كان لله مضى ، وإن كان لغيره تأخر .

٢- ينبغي على الإنسان أن يعمل لما بعد الموت ، وأن يستغل هذه الدنيا بالأعمال الصالحات ، لأنه في هذه الدنيا دار العمل ، وفي الآخرة الحساب والجزاء .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ . وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ. وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) .

وقال تعالى (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) .

نسير إلى الآجال في كل لحظةٍ --- وأعمارنا تطوى وهن مراحلُ

ترحل من الدنيا بزاد من التقى --- فعمرك أيـــام وهن قلائـــلُ

فالأيام تطحن الأعمار طحن القمح في الرحى.. ثم تذرى الأعمال أدراج الرياح؛ ولا يبقى إلا ما رضيه الله سبحانه، وأحبه من الأقوال والأفعال.

إنـــا لنفـــرح بالأيـــام نقطعهـــا --- وكل يوم مضى يدني من الأجل

فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً --- فإنما الربـــح والخسران في العمل

أخي المسلم : بادر الأيام بالعمل الصالح، وأملأ خزائنها بالفرائض والنوافل قبل أن تبادرك هي بموتٍ أو عجز، وقبل أن تجدها فارغة خاوية تقول (يا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) .

خطب حذيفة يوم جمعة في المدائن فقال: إن الله تعالى يقول (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) إلا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم الضمار وغداً السباق، ألا وإن الغاية النار والسابق من سبق إلى الجنة.

فيا أيها العاجز المقصر في الأعمال ، الغارق في لجج الآمال، المغتر بطول الإمهال ، إن الأمر جد والخطب جلل، ولن ينفعك – بعد رحمة الله – إلا العمل الصالح ، فالبدار البدار فهو الذخيرة المأمولة ، والوسيلة المرجوة ، وهو المؤنس في الوحشة ، والقرين في الخلوة ، والصاحب حيث لا صاحب ولا أهل ولا مال ، فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهداً فإنما الربح والخسران في العمل .

قال ﷺ (يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله) .

فرحم الله امرءاً أخذ من نفسه لنفسه ، وأعد العدة لأوان رمسه ، وتأهب للرحيل قبل غروب شمسه فما الحياة إلا كان ثم بان .

تزود من الدنيا فإنك لا تـدري ---- إذا جنَ ليل هل تعيش إلى الفجرِ

فكم من عروس زينوها لزوجها ---- وقد أخذت أرواحهم ليلة القدر

وكم من فتى يمسي ويصبح لاهياً ---- وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

وكم من ساكن عند الصباح بقصره ---- وعند المسا قد كان من ساكن القبر

فكن مخلصـــــاً واعمل الخير دائماً ---- لعلك تحظى بالمثوبـــة والأجـــر

قال تعالى (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَاد)

وقال تعالى (إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً) .

قال الشاعر : فارْحلْ من الدنيا بزادٍ من التقى فعُمُرُك أيامٌ وهنّ قلائلُ

قال رجل للفضيل : كم أتت عليك ؟ فقال الرجل: ستون سنة، فقال الفضيل: فأنت منذ ستين تسير إلى ربك يوشك أن تبلغ.

٦٧–الثامن : عن أبي هريرة ﷺ ، قَالَ : قَالَ رَسُول الله ﷺ : ((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ)) حديث حسن رواه الترمذي وغيرُه .

(**من حسن**) أي من كمال وجمال .

(**إسلام المرء**) أي استسلامه وانقياده .

(**تركه**) يشمل الأقوال والأعمال .

(**ما لا يعنيه**) أي : ما لا تتعلق به عنايته ويهتم به .

١–قوله ﷺ (من حسن إسلام المرء) المراد بالإسلام هنا اسم لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة .

وله مرتبتان :

الأولى : مطلق الإسلام .

وهو القدر الذي يثبت به عقد الإسلام ، فمتى التزم به العبد صار مسلماً داخلاً في جملة أهل القبلة ، **وحقيقته** : التزام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله والقيام بحقوقهما .

والأخرى : حسن الإسلام .

وحقيقته : امتثال شرائع الإسلام ظاهراً وباطناً باستحضار مشاهدة الله أو مراقبته للعبد .

وهذا القيام تحقق بمرتبة الإحسان المذكورة في حديث جبريل المتقدم .

وحديث الباب يتعلق بالمرتبة الثانية .

٢– الحديث دليل على أن من حسن وكمال إيمان الإنسان تركه ما لا يهمه ولا يعنيه في دنياه وآخرته من أقوال أو أعمال .

والذي لا يعني العبد : هو ما لا يحتاج إليه في القيام بما أمِرَ به من عبادة الله .

والذي لا يعني العبد أفراده كثيرة لكن يمكن ردها إلى أربعة أصول :

أولها : المحرمات ، **وثانيها** : المكروهات ، **وثالثها** : المشتبهات لمن لم يتبينها ، **ورابعها** : فضول المباحات وهي ما زاد عن حاجة العبد منها .

قال ابن رجب : وإذا حسُن الإسلام اقتضى ترك ما لا يعني كله من المحرمات والمشتبهات والمكروهات وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها ، فإن هذا كله لا يعني المسلم إذا كمُل إسلامه وبلغ إلى درجة الإحسان ، وهو أن يعبد الله تعالى كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه ، فمن عبد الله عن استحضار قربه ومشاهدته بقلبه أو على استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه ، فقد حسن إسلامه ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام ، ويشتغل بما يعنيه فيه ، فإنه يتولد من هذين المقامين الاستحياء من الله ، وترك كل ما يستحيي منه .

وقال ابن القيم : قد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة فقال (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) فهذا يعم الترك لما لا يعني : من الكلام ، والنظر ، والاستماع ، والبطش ، والمشي ، والفكر ، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة ، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع .

٤- وأكثر ما يراد بترك ما لا يعني حفظ اللسان من لغو الكلام .

كما في قوله تعالى (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) .

وقال تعالى (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

وقال تعالى (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ) .

قال بعض العارفين : إذا تكلمت فاذْكر سمع الله لك ، وإذا سكت فاذكر نظره إليك .

٥- أن عدم ترك الإنسان لما لا يعنيه يدل على أن إسلامه ليس بحسن .

٦- من أقوال السلف :

قال الغزالي : علاج ترك ما لا يعني أن يعلم أن الموت بين يديه ، وأنه مسؤول عن كل كلمة تكلم بها ، وأن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكته يقدر على أن يقتنص _ أي يصطاد _ بها الحور العين ، فإهماله وتضييعه فيما لا يعنيه خسران مبين .

وقال الحسن : من علامة إعراض الله عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه .

وقال معروف الكرخي : كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله تعالى .

وقال مالك بن دينار : إذا رأيت قساوة في قلبك، وضعفاً في بدنك، وحرماناً في رزقك، فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعنيك .

وقيل للقمان : ما بلغ بك ما نرى ؟ قال : صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وترك ما لا يعنيني .

وقال يونس بن عبيد : ترك كلمة فيما لا يعني أفضل من صوم يوم .

وقال الشافعي : ثلاثة تزيد في العقل : مجالسة العلماء ، ومجالسة الصالحين ، وترك الكلام فيما لا يعني .

وقال أيضاً : من أراد أن ينور الله قلبه فليترك الكلام فيما لا يعنيه .

٧- ينبغي للمسلم أن ينشغل بما يعنيه وينفعه .

٨- اغتنام الحياة بالعمل الصالح .

٩- أن الإيمان يزيد وينقص .

١٠- يخطئ البعض ويعتقد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في التدخل فيما لا يعني الإنسان ، وهذا خطأ كبير .

والتدخل في شؤون الغير له أحوال :

يكون واجباً : مثل التدخل لتغيير المنكر ، ويأثم لو لم يتدخل وهو يستطيع .

يكون مستحباً : مثل التدخل لتحسين وضع أخيك في طريقة كلامه مثلاً .

ويكون مباحاً : كسؤال إنسان هل سافر أم لا .

ويكون مكروهاً : مثل سؤال رجل يتحرج في الجواب في أمر خاص به .

ويكون محرماً ، مثل التجسس على المسلم .

٦٨-التاسع : عن عُمَرَ ﷺ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : ((لاَ يُسْأَلُ الرَّجُلُ فِيمَ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ)) رواه أبو داود وغيره .

الحديث ضعيف ولا يصح .

قال ابن القطان رحمه الله : لا يصح .

وقال الذهبي رحمه الله : فيه عبد الرحمن المسلي : لا يعرف .

وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله : إسناده ضعيف .

١- على فرض صحة الحديث ، فتفسيره عند أهل العلم تفسير مقبول وصحيح ، حاصله أنه لا ينبغي للناس أن يتدخلوا فيما لا يعنيهم ، فإذا عرف شخص بوقوع خلاف بين رجل وزوجته ، وعرف أنه خلاف شديد أدى إلى ضرب الزوج زوجته : فلا يجوز له أن يفتش عن أسرار البيوت ، ولا يتطاول ليطلع على خباياهم ، فذلك من سوء الأدب ، وقلة الذوق ، إلا إذا كان ذلك الشخص من أهل الإصلاح ، وغلب على ظنه أنه يمكنه تقديم المساعدة والمشورة لتجاوز النزاع ، فله حينئذ أن يسأل عن المشكلة وأسبابها ، بعد قبول الطرفين ورضاهما بتحكيمه وتدخله .

وأقوال الفقهاء وشراح الحديث تدل على هذا المعنى :

يقول ابن قدامة رحمه الله في بيان تعليل هذا الأثر: لأنه قد يضربها لأجل الفراش – أي: امتناعها عن الجماع – فإن أخبر بذلك استحيا ، وإن أخبر بغيره كذب .

ويقول المناوي رحمه الله : أي : لا يُسأل عن السبب الذي ضربها لأجله لأنه يؤدي لهتك سترها ، فقد يكون لما يستقبح ، كجماع ، والنهي شامل لأبويها .

ويقول الإمام النووي رحمه الله : فصل : يكره أن يُسأل الرجل : فيم ضرب امرأته من غير حاجة : قد روينا في أول هذا الكتاب في (حفظ اللسان) والأحاديث الصحيحة في السكوت عما لا تظهر فيه المصلحة ، وذكرنا الحديث الصحيح : (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) .

٢- من تعدى وبغى على زوجته وضربها بغير حق فإنه يسأل، لأن الله تعالى يقول (فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيراً) .

قال ابن كثير رحمه الله تعالى قوله (إن الله كان علياً كبيراً) تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب، فإن الله العلي الكبير وليُّهن، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن.

أخوكم

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع / مجلة رياض المتقين

www.almotaqeen.net

الثلاثاء: ٣٠ / ٨ / ١٤٣٣هـ